﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾

و« ودوا » ضميرها يعود على المنافقين الذين اختلف فيهم المسلمون إلى فئتين ، وحكم الله فى صالح الفئة التى أرادت أن تقف منهم موقف القوة والبطش والجبروت ، فقال سبحانه وتعالى تعليلاً لنفاقهم : « ودّوا لو تكفرون كما كفروا » ثم إن نفاقهم معناه قلق يصيبهم من مستوى حالهم مع مستقبل الإسلام أو حاضره ؛ لأنهم كافرون بقلوبهم ، ولكنهم يخافون أن يظهر الإسلام فيعاملهم معاملة الكافرين به ، فيحاولون أن يظهروا أنهم مسلمون ليحتاطوا لنصرة الإسلام وذيوعه ، فهم فى كرب وتعب ، وهذا التعب يجعلهم يديرون كثيراً من الأفكار فى رءوسهم : يقولون نعلن أمام المسلمين أننا مسلمون ، ونعلن أمام الكافرين أننا كافرون .

وما الذى ألجأهم إلى هذا الحال ، وقد كانوا قديماً على وتيرة واحدة ، ألسنتهم مع قلوبهم قبل أن يجىء الإسلام ؟ إذن فالذى يعيدهم إلى حالة الاستقرار النفسى وينزعهم من القلق والاضطراب والخوف على حاضرهم ومستقبلهم هو أن تنتهى قضية الإسلام ، فلا يكون هناك مسلمون وكافرون ومنافقون . بل يصير الكل كافراً .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا » والودادة عمل القلب ، وعمل القلب تخضع له جميع الجوارح إن قدرت ، فمادامو يودون أن يكون المسلمون كافرين ، إذن سيقفون فى سبيل انتصار المسلمين ، وسيضعون العقبات التى تحقق مطلوبات قلوبهم . لذلك فاحذروهم ، سأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل تصرفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم .

« ودوا لو تكفرون » ونعرف أن كلمة « الكفر » تعنى « الستر » ، فالفعل « كفر » معناه « ستر » . ومن عظمة الإيمان بالإسلام وعظمة الحق فى ذاته هو أنه لا يمكن أبداً أن يطمسه خصومه ، فاللفظ الذى جاء ليحدد المضاد لله هو عينه دليل على الإيمان بالله . فعندما نقول : « كفر بالله » أى « ستر وجوده » ، كأنه قبل أن يستر الوجود فالوجود موجود ، ولذلك نجد أن لفظ « الكفر » نفسه دليل على الإيمان ، فلفظ « الكفر »فى ذاته تعنى إيمانا موجوداً يجاهد صاحبه نفسه أن يغطيه ويستره .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا » . وهذا القول جاء بعد أن قال الحق :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

ويدل على أنهم يوصفون مرة بالمنافقين ويوصفون مرة بالكافرين . وسماهم الله فى آية بـ « المنافقين » ويصفهم الحق فى هذه الآية بأنهم كفروا « ودوا لو تكفرون كما كفروا » والكفر الذى يجىء وصفه هنا يدل على مكنون القلب ، فالنفاق لم يعطهم إلا ظاهريات الإسلام ، لكن الباطنيات لم يأخذوها ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار فى الآخرة ؛ وإن كانوا فى الدنيا يعاملون معاملة المسلمين احتراماً لكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . لكن الله يعاملهم فى الآخرة معاملة الكافرين ، ويزيد عليها أنهم فى الدرك الأسفل من النار .

إذن فأصحاب الباطل إن كانت لهم قوة يجعلون لسانهم مع قلوبهم فى الجهر بالباطل ، وإن كان عندهم ضعف يجعلون قلوبهم للباطل ولسانهم للحق . وهذه العملية ليست مريحة فى كلا الموقعين . فالمريح لهم ألاّ توجد للحق طائفة . لذلك يقول سبحانه وصفاً لحقيقة مشاعرهم : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » . فهم يتمنون إزالة طائفة الحق حتى لا يكون هناك أحد أفضل من أحد ، مثلما نقول : مفيش حد أحسن من حد .

مثال ذلك : نجد مجموعة من الموظفين فى مصلحة حكومية ، ويكون من بينهم واحد مختلس أو لا يؤدى عمله على الشكل الراقى المطلوب ، لذلك فهو لا يحب أن يؤدى الآخرون أعمالهم بمنتهى الإتقان ، ويريدهم فاسدين ، ويحاول أن يغريهم

بالفساد حتى يكونوا مثله ؛ كى لا يظهروه أمام نفسه بمظهر النقيصة . وحتى لا يكون مكسور العين أمامهم .

ومن العجيب أننا نجد الذى يسرق يحترم الأمين ، وكثيرا ما نسمع عن لص من فور ما يعلم أن هناك كميناً ينتظره ليقبض عليه فهو يبحث عن رجل أمين يضع عنده المسروقات كأمانة .

وقول الحق عن أمنية المنافقين الكافرين بقلوبهم هو أن يكون المؤمنون مثلهم « فتكونون سواء » . وهذه شهادة فى أن صاحب الباطل يحب من صاحب الحق أن يكون معه ؛لأنه حين يجده فى الحق ، فصاحب الباطل يحتقر نفسه ، وقد حدثت العجائب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كفروا به وعذبوا صحابته ، ولكنه هو الأمين باعترافهم جميعاً . فها هوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يهاجر من مكة وخلف « عليا » كرم الله وجهه ليرد الودائع والأمانات التى عنده .

هم كذبوه فى الرسالة ، ولكنه الأمين باعترافهم جميعاً ، لذلك أودعوا عنده الأمانات . إذن فصاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة . وحتى نتعرف تماماً على هذا المعنى ، فلنفترض أن إنساناً وقع فى مشكلة ، سبّ أحداً من الناس ورفع المعتدى عليه دعوى قضائية على هذا المعتدى الذى سبّه ، ولهذا المعتدى صديق عزيز ، استشهد به المعتدى عليه ، فيقول المعتدى : أتشهد علىّ ؟ ويذهب الصديق إلى المحكمة ليقول : « لا يقول صديقى مثل هذا السباب » . وهنا شهد الصديق لصديقه شهادة زور . ولنفترض أن هذا المعتدى قد تاب وأناب وصار من الأتقياء ، وجعله الناس حكماً بينهم ، وجاء له الصديق الذى شهد الزور من أجله ليشهد أمامه ، فهل يقبل شهادته ؟ طبعا لا .

إذن صاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة ، فإذا ما حاول أحد من أصحاب الرذيلة أن يشد صاحب الفضيلة إلى خطأ ، فهو يسعى إلى إضلاله ، وينطبق على ذلك قول الحق : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » ومادام هذا هو هدفهم وفكرتهم ألا يتركوا المؤمنين على إيمانهم ، لأجل أن يأخذوهم إلى صف الكفر . وهم بذلك كمنافقين كفار قلوب غير مخلصين لصف الإيمان . وهم

لا يقفون من الإيمان موقف الحياد ، ولكنهم يقفون منه موقف العناد والعداوة . « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » وفى هذا تحذير واضح للمؤمنين هو : إياكم أن تأمنوهم على شيء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم .

ويصدر الحق الحكم فى هذه القضية بمنتهى الوضوح : « فلا تتخذوا منهم أولياء » أى إياكم أن تتخذوا من المنافقين نصراء لكم أو أهل مشورة ؛ لأن الله سبحانه فضح لكم دخائل نفوسهم ، وهذه المسألة ليست ضربة لازب ، فإن آب الواحد منهم وأناب ورجع إلى حظيرة الإيمان فلن يرده الله ، فسبحانه وتعالى لا يضطهد أحداً لمجرد أنه ارتكب الذنب ؛ لأنه الحق غفور ورحيم ، فمادام قد عاد الإنسان إلى الصواب وبَعُد عن الخطأ ، فعلى المؤمنين أن يقبلوا من يعود إليهم بإخلاص ، فالكراهية لا تنعقد ضد أحد لأنه أخطأ ؛ لأن الكراهية تكون للعمل الخطأ ، وليست موجهة ضد الإنسان المخلوق لله ، فإن أقلعوا عن الخطأ ؛ فهم مقبولون من المؤمنين .

وهاهوذا قاتل زيد بن الخطاب يمر أمام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال له بعض الناس هاهوذا قاتل أخيك زيد . فيقول عمر بن الخطاب : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟!

وهكذا نرى أن الكراهية لم تتعد إلى ذات القاتل ، ولكن الكره يكون للفعل ، فإن أقلعت الذات عن الفعل فالذات لها مكانتها . وهكذا يصدر الحكم الربانى : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » .

والهجرة فى سبيل الله كانت تكلف الإنسان أن يخرج من ماله ومن وطنه ومن أهله ، ويذهب إلى حياة التقشف والتعب والمشقة ، وفى هذا ما يكفر عنه ، ويتعرف المؤمنون هنا أنه قد تاب إلى الله فتاب الله عليه وآن له الأوان أن يدخل فى حوزة الإيمان . فإن فعل ذلك فقد عاد إلى الإيمان . ولذلك يجب على الناس أن يفصلوا الذوات عن الأفعال . لماذا ؟ لأن الذوات فى ذاتها لا تستحق أن تكره ، وإنما يكره فعل الذات إن كان قبيحا سيئا .

وحين نقرأ القرآن نجده يعرض مثل هذه المسألة ، فسيدنا نوح عليه السلام عندما تلقى وحى الله بأن يصنع السفينة ، وجلس يصنعها ويمر عليه الناس فيسخرون منه فيقول لهم سيدنا نوح : سنسخر منكم غداً كما تسخرون منا . ويأتى له ابن ليس على منهجه ، فيدعوه نوح إلى المنهج فيقول الابن : « لا » . ويركب نوح السفينة ويقول لله : لقد وعدتنى أن تنجينى أنا وأهلى .

وهنا يوضح الحق : صحيح أنا أنجيك أنت وأهلك ، ولكن ما الذى جعلك تعتبر ابنك من أهلك ، إن الذوات عند الأنبياء لا نسب لها ، إنما نسب الأنبياء الأعمال :

﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن العمل هو الذى يتم تقييمه . ولذلك يقول الحق : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » والهجرة من « هجر » ، و« هجر » يعنى أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان ، أو عن ود إلى ود ، أو عن خصلة إلى خصلة ، والذى يهجر عادة يتجنى على من « هُجر » ، لنلاحظ أن الله سبحانه وتعالى فى كتابه عندما يأتى بالحدث . يأتى بـ« هاجر » ، ولم يأت بالحادث « هجر » ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة . ولكنه هاجر منها ، ويقول صلى الله عليه وسلم :

« والله إنك لأحب أرض الله إلىّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت »(١) .

فالهجرة جاءت ؛ لأن أهل مكة هجروه أولاً ، فاضطر أن يهاجر . و« هاجر » على وزن « فاعل » . والمتنبى يقول :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون همو

ولذلك جاء الحق بالهجرة على صيغة المفاعلة . لقد كرهوا دعوته . واستجاب الرسول للكراهية فهاجر .

---

(١) رواه أحمد والترمذى .

ويوضح سبحانه أن الذى يخلص هؤلاء المنافقين من حكمنا عليهم ، ألا يتخذ المؤمنون منهم أولياء هو : أن يهاجروا فى سبيل الله ؛ لأن ذلك هو حيثية صدق الإيمان . فالمهاجر يحيا عيشة صعبة . وقد عاش المهاجرون على فيض الله من خير الأنصار ، ولم يؤسسوا حياتهم بشكل لائق . إذن فمن ينضم إلى ذلك الموكب هو مؤمن اشترى الإيمان وقدر على أن يكفر عما بدر منه . فليست الهجرة مجرد هجرة ، ولكنها هجرة فى سبيل الله .

ولذلك نرى القاعدة الايمانية فى الحديث النبوى : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . . فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

وهكذا يعامل المؤمنون المنافق إن عاد من كفره ونفاقه إلى الإيمان . لكن ماذا لو تولّى المنافقون ؟ . « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً » والأخذ إذا جاء فى مقام النزاع فمعناه الأسر . وقتلهم فى ساحة القتال أمر واجب ، ولا يصح أن يتخذهم المؤمنون أولياء أو نصراء ؛ لأن الواحد من المنافقين يكون دسيسة على المؤمنين ، ويحاول أن يعرف أمور وأحوال المسلمين ، ويطلع خصوم الإسلام على ما يمكن أن ينفذ منه العدو إلى المسلمين . ويستميت ليعرف ما يبيت المسلمون للكافرين .

واتخاذ الولى أو النصير ممن نعلم أنه لا يحب الإيمان وليس على مبدأ الإسلام وعقيدته أمر يشكك فى صدق بصيرة الإنسان الذى يتولى ويود غير المسلمين المخلصين . فحين يرى الواحد منا إنساناً آخر لا يحبه ويكيد المكائد ، وعندما يراك تثق فيه وتحسن إليه ، يقول هذا الكاره : هذا إنسان فاقد البصيرة فلو عرف ما فى قلبى لما فعل ذلك . فإذا اتخذ المؤمنون من المنافقين أولياء أو نصراء والمنافقون على ما هم عليه من نفاق لقال المنافقون : إن المسلمين فاقدو البصيرة وهم لا يعلمون ما فى قلوبنا ؛ لذلك ينير الحق بصيرة المؤمنين حتى لا نأخذ رأياً من المنافقين ينال منا .

وقد يقول المنافقون : إن هؤلاء المسلمين ليس لهم ربٌّ يبصرهم ، فلماذا يدعون

(١) رواه البخارى .

أن لهم إلهاً ؟. لو كان لهم إله لبصرهم بما في نفوسنا . ونجد هذا الفضح لهم عندما يقول الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

وعدم تعذيب الحق له وقت كفرهم له فائدة ورحمة سيدركونها فيها بعد . فمن هؤلاء مَن سيكون سيفاً للإسلام بعد أن كان سيفاً على الإسلام ؛ فقد ادخرهم الله ليكون بعض منهم سيفاً للإسلام ، فها هو ذا ابن الوليد يهتدى ، وها هو ذا عمرو بن العاص ، وهاهو ذا عكرمة بن أبي جهل ، هؤلاء سيكونون سيوفاً للإسلام ، ولا يظنن منهم أحد أنه سترَ مكنونَ نفسه عن الله :

﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هذا القول قد أدى أمرين :

الأمر الأول : أوضح أن هناك رباً مطلعاً على خائنة الأعين وخفايا الصدور . والأمر الثاني : أوضح أن الله لم يعذبهم لأن منهم من سيمس الإيمان قلوبهم وسيكونون سيوفاً للإسلام وسيخرج من ذريتهم قادة يحملون الدعوة لله . ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم وقد جاءه جبريل وقال له : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمرهُ بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربّك إليك لتأمرني بأمرك بما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[1] . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا »[2] .

وقد حدث ذلك . إن أسلوب معاملة المنافقين يحدده الله في هذه الآية بما يلي : هم قومٌ الكفر يسكن القلب منهم ومظهرهم يَدَّعى الإسلام ويتمنون أن يكون

(١) الأخشبان : هما جبلان بمكة : أبو قبيس ، والذى يقابله وهو قعيقعان .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

المؤمنون على شاكلتهم ، فلذلك لا يتخذ المسلم وليا من النافقين ولا نصيراً .

ولكن إن هاجر المنافق فرحابة الإيمان تتسع له ، أما إن تولّى المنافق وأعرض عن ذلك . فأسلوب المعاملة يكون كما يحدده الله : « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصير » لكن بعد أن يُطلق هذا الأمر توجد عقبة فى تنفيذه ، إنها عقبة الأحلاف والعهود والمواثيق التى كان يعطيها رسول الله لبعض القبائل ، وكانت هذه العهود تتلخص فى أن الرسول يعاهد بعض القبائل بعدم الإغارة على المسلمين وعدم إغارة المسلمين عليهم . ولذلك يحترم الحق هذه المواثيق والأحلاف .

إن الحق يوضح لنا : لا تأخذوا هذا الأمر أيها المسلمون على إطلاقه ؛ لأن الإسلام دين الوفاء بالعهود ، وقد أعطيتم بعض القبائل عهوداً بأن من لجأ إليهم يؤمنونه ويدخل فى حمايتهم ، وكذلك الذى يصل ويلجأ إلى المسلمين فعليهم حفظه ومنع التسلط عليه .

لذلك قال الحق فى هذا الاستثناء :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ
أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ
يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ
ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾

والآية تبدأ باستدراك حتى لا تفتح مجالاً لإغضاب من كان للإسلام تعاهد معهم وتعاقد ، فالذين يصلون ويلجأون إلى قوم بينهم وبين المسلمين تحالف أو ميثاق

لا ينطبق عليهم ما جاء فى الآية السابقة وهو الأخذ والقتل .

مثال ذلك ما حدث من عهد بين المسلمين وهلال بن عويمر الأسلمى على ألاّ يعينوه ولا يعينوا عليه وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله الجوار مثل الذى لهلال . والاستثناء يشمل أيضاً من جاءوا إلى المسلمين ، فمن ذهب من المنافقين إلى من عاهده المسلمون فهو يحصل على الأمان ، وكذلك يُؤَمِّنُ الرسول من جاءه من المنافقين وقال من الأسباب ما يجعله يطلب حماية الرسول والإسلام : فعلى الرغم من نفاقه يؤمنه الإسلام .

« أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » كأن يقول الواحد منهم : أنا لا أقدر أن أقاتلكم ، ولا أقدر أن أقاتل قومى فاغفر لى هذا واقبلنى معكم . هؤلاء يقبلهم الرسول لأنهم أقروا بما هم فيه من ضيق ، فهم لا يستطيعون التصرف لا أمام المسلمين فيعلنون الإيمان ، ولا أمام الكافرين فيعملون فى معسكر الكفر . ولا يستطيعون أن يتخذوا موقفاً حاسماً حازماً بين المسلمين والكافرين ، فهم يقرّون بضعفهم ، ويعترفون به .

« ولو شاء الله لسلطهم عليكم » . فما الذى يجعلهم يلوذون إلى قوم يتحالفون مع المسلمين بميثاق حتى يحتموا فيهم ؟ أو يقرون أن صدورهم ضيقة وأنهم غير قادرين على التصرف ، ويعلنون : لا نستطيع أن نقاتلكم ولا أن نقاتل قومنا . ويوضح الحق : أنا فعلت هذا وألقيت الرعب فى نفوسهم ، ولو شئت لسلطتهم وجرأتهم عليكم ، وقاتلوكم ، إذن فسبحانه ينصرنا بالرعب ويمنع قتالهم لنا .

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً » .

إن اعتزلوكم ولم يقاتلوكم وألقوا السلم واعترفوا بأنهم لا يملكون طاقة اختيار بين قتال المسلمين أو قتال قومهم ، فليس لكم أيها المسلمون حجة أن تعتدوا عليهم ؛ فالاعتداء عليهم فى مثل هذه الحالة ينهى الله عنه .

وعين الحق لا تقتصر على ما نعرف ، ولكنها تتعدى إلى أدق التفاصيل ؛ فهى عين لا ترى ما عرفناه فقط ولكنها تكشف لنا الحجب التى لا نعرفها ، فيقول سبحانه :

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا
قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ
يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ
فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰٓئِكُمْ
جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾

تبدأ هذه الآية بفعل يتحدث عن المستقبل : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم » . معنى ذلك أن المسلمين لحظة نزول هذه الآية لم يكونوا قد وجدوا مثل هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم الحق ، ولو لم يحدث للمعاصرين لنزول القرآن أن وجدوا مثل هؤلاء ماذا كانوا يقولون عن هذا الخبر ؟. لو لم يجدوا مثل هؤلاء القوم لتشككوا فى القرآن . وسبحانه يوضح أنى عين معكم ، وعين لكم ، أخبرتكم بما حدث واختلفتم فيه ، وأخبركم بما لم يصل إلى أذهانكم وعلمكم فلا تختلفوا فيه ، وهذا دليل على أنكم فى رعايتى وفى عنايتى .

« ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم » وهؤلاء القوم هم قوم من بنى أسد وغطفان ، وكانوا على مشارف المدينة ، وكانوا يقابلون المسلمين فيقولون : « نحن معكم » ، وكانوا أيضاً يقابلون الكفار فيقولون : « نحن معكم » ، والحقيقة أنهم عاجزون عن مواجهة أى معسكر . ولذلك يصفهم القرآن : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها » . وهؤلاء كلما جاءهم الاختبار « أركسوا فيها » . أى فشلوا فى الاختبار ، فعناصرهم الإيمانية لم تقو بعد ، ومازالوا فى حيرة من أمرهم . وعندما جاءتهم الفتنة لتصهرهم وتكشف ما فى

أعماقهم ازدادت حيرتهم . فالفتنة هى اختبار ، وليست الفتنة شيئاً مذموماً ، وعندما يقال : إن فلانا فى فتنة فعلى المؤمن أن يدعو له بالنجاح فيها ، فالفتنة ليست مصيبة تقع ، ولكن المصيبة تقع إذا رسب الإنسان فى الفتنة .

ونعلم أن الفتنة مأخوذة من الأمر الحسى ، فتنة الذهب وكذلك الحديد : فتنة الذهب هى صهر الذهب فى البوتقة حتى ينصهر ؛ فتطفو كالزبد كلُّ العناصر الشائبة المختلطة بالذهب ، وكذلك الحديد ، يتم صهره حتى تنفصل الذرات المتماسكة بعضها عن بعض . ويطفو الخبث .

ونعرف أن الحديد أنواع : فالحديد الزهر شوائبه ظاهرة فيه وسهل الكسر . بينما نجد الحديد الصلب بلا خبث فهو صلب . وفتنة الذهب والحديد تكشف عن المعادن الغريبة المختلطة به . ونقلت كلمة « الفتنة » من المحسات إلى المعانى ، وصارت الفتنة هى الاختبار الذى ينجح فيه الإنسان أو يرسب ، فهى ليست ضارة فى ذاتها ، ولكنها ضارة لمن يرسب فيها .

وهكذا كان تنبؤ القرآن الذى يخبر المسلمين بأمر قوم على حدودهم ، تجعلهم الفتنة لا يقوون على الإيمان ، أى فكلما دعاهم قومهم إلى الشرك وقتال المسلمين رُدُّوا على أعقابهم وانقلبوا على رءوسهم أقبح قلب وأشنعه وكانوا شرًّا من كل عدو عليكم ، ويشرح القرآن كيفية سلوك المؤمنين تجاه هؤلاء المرتكسين والمنقلبين فى الفتنة : « فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » ونلحظ أن الحق أمر بتأمين من لجأوا بضعفهم على الرغم من نفاقهم إما إلى المسلمين وإما إلى حلفاء المسلمين حين قال فى الآية السابقة :

﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النساء)

وهذا إنصاف وتنبيه إلهى من الحق ألا يسمع أحد صوت حفيظته ويفترس قوماً ضعفاء . أما الذين يحاولون التمرد والاستسلام لصوت الكفر وإيقاع الأذى بالمسلمين ، ولم يلقوا بالسلم للمسلمين ويكفوا أيديهم عنهم ، هؤلاء يأتى فيهم الأمر الإلهى :

خذوهم واقتلوهم . وجعل الله للمسلمين على هؤلاء السلطانَ المبين . والسلطان ـ كما نعرف ـ هو القوة ، والقوة تأخذ لونين : هناك قوة تقهر الإنسان على الفعل كأن يأتى واحد ويأمر إنساناً بالوقوف فيقف ، وكأنْ يأمر القوىُّ الضعيفَ بالسجود فيسجد . وهذا سلطان القوة الذى يقهر القالب ، لكنه لا يقدر على قهر القلب أبداً . والسلطان الثانى هو سلطان الحجة ، وقوة المنطق وقوة الأداء والأدلة التى تقنع الإنسان أن يفعل .

والفارق بين سلطان القوة وسلطان الحجة أن سلطان القوة قد يقهر الإنسان على السجود ، لكن سلطان الحجة يجعل الإنسان يسجد بالاقتناع . والسلطان المبين الذى جعله الله للمؤمنين على المنافقين الذين يقاتلون المؤمنين ، هذا السلطان يمكن لكم أيها المسلمون قوة تفعلون بها ما تريدون من هؤلاء ماداموا حاولوا القتال وإلحاق الأذى بالمسلمين ، فالحزم والعدل هو أخذهم بالعنف .

وحتى نفهم معنى السلطان جيداً فلنتذكر الجدل الذى سيحدث فى الآخرة بين الشيطان والذين اتبعوا الشيطان ، سنجد الشيطان يقول : لقد أغويتكم ، هذا صحيح ، وأنتم اتبعتمونى ، فأنتم المسئولون عن ذلك ، فلم يكن لى عليكم من سلطان قوة أو سلطان إقناع :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وبعد أن تكلم الحق عن القتال ومشروعيته ، وقتال المنافقين ، وقتال الآخرين . نجد الكلام يصل إلى موضوع القتل . فأوضح لهم : المسألة أننى أنا الذى عملت البنيان الآدمى ، والحياة أنا الذى أهبها ، وليس من السهل لبانى البنيان أن يحرض على هدمه ، إنما أنا أحرض على هدم هؤلاء الذين يقاتلونكم ؛ لكى يسلم باقى البنيان لكم ، وإياكم أن تجترئوا على بنيانات الناس ، فملعون من يهدم بنيان الله ؛ فالنفس التى خلقها الله ، إياك أن تقترب من ناحيتها إلا بحقها وذلك بأن اجْتَرَأَتْ على حدود الله ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق الحياة وهو الذى يأخذ الحياة، وحياة الناس ليست ملكاً لهم ؛ فحياة الإنسان نفسه ليست ملكاً لنفسه ، ولذلك فمن يقتل واحداً، عُدْوانا دون حق نقتص منه ، وأما إن كان ذلك قد قتل خطأً فنأخذ منه الدية،

وتنتهي المسألة . لكن قاتل نفسه تحرم عليه الجنة .

إذن فقبل أن يقول لى : لا تقتل غيرك قال لى : إياك وأن تقتل نفسك . إذن فسبحانه ليس بغيور فقط على الناس منك ، بل يغار عليك أيضاً من نفسك ، ولذلك فحين شرع سبحانه القصاص فى القتل شرعه ليحميك لا ليجرئك على أن تقتل ، أما عندما يأمر سبحانه : أن من قَتَلَ يُقتل.فهو يقسط ويعدل ، والقصد من هذا الحفاظ على حياتين ؛ لأنك إن علمت أنك إن قَتَلْتَهُ قُتِلْت لا تقتل . ومادمت لا تقتل فقد حميت حياتين حياة من كنت ستقتله وحياتك من أن يُقتص منك وهذا هو معنى قوله :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

إذن فالذى يتفلسف ويقول : هذه بشاعة وكذا وكذا نقول له : الذى يشرع القصاص أيريد أن يَقتل ؟ لا ، بل يريد أن يحمى حياتك ؛ لأن القاتل عندما يعلم أنه إن قَتَلَ يُقتل فلا يقتل ، ومادام لا يقتل نكون قد حافظنا على حياته وحياة الآخر . إذن فقوله : « ولكم فى القصاص حياة » قول صدق .

وعندما تكلم الحق عن القتال والقتل ينبهنا : إياكم وأن تجترئوا بسبب هذه المسائل على دماء الناس ولا على حياتهم ؛ لذلك يتكلم سبحانه عن القتل المحظور فى الإيمان والإسلام ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا
وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ
وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن
كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ